

اللغة والألفاظ

الدعوة الى انحصارها لتسهيلها

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

الانجليزية ، ولا فيها لأبنائها وعلماؤها وكتابها وساستها أى كفاية ، وإنما هي حسب الأجنبي الذي يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أو ما هو من هذا بسيل ، وقد ابتكر المستر اوجدن هذه الوسيلة ليتمكن للفتنه ويزيدها ذبوعاً ، لا لينشرها ، فقد تكلفت بنشرها الامبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر اوجدن ؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك في لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة ، لما أجدى ذلك شيئاً ، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبتها المحلية

وشيء آخر يفلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل ، ذلك أن السهولة مرجعها إلى العقل ، لا إلى الألفاظ ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً ، لا ثمانمائة ، لما اختلف الحال ، ولبقيت المسألة حيث كانت ، لأن المول في التعبير على الكاتب ؛ وليس على عدد الألفاظ ، وما من كاتب أو شاعر في الدنيا يستعمل كل ما في لفته من كلمات ، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ في ذاته ومن حيث هو ، منها أن يكون المعنى الذى يلتمس المرء العبارة عنه ، واضحاً في الذهن ، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التي يؤدي بها المعاني ، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غامضاً ، أو غامضاً ، أو غير واضح على العموم ، في ذهن المرء ، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به ، فيجئ الكلام مضطرباً غير مفهوم ، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول ، وقد يكون المرء عارفاً بما في نفسه ؛ مدركاً المعاني الدائرة فيها ، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها وبرزها في صورة واضحة ، فيسيء الأداء ؛ وإن كان قد أحسن التفكير ، ويقصر في العبارة ؛ وإن لم يقصر في فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخواجا . وفي وسى أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة ، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد ، وفي مقدورى كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعظم المعاني وأعوصها تمييزاً يحمل القارئ على الظن بأن هذه كلها من البداهة ، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة ، وحوشية أو مأنوسة ، بل بالكاتب نفسه ، أى بوضوح المعنى الذى في رأسه

اللغة تتبع الدولة ، وتسير في ظلها ، ولا سبيل إلى انتشار لغةٍ يُطلب أهلها على أمرهم ، وبمقدور أن تصد عن الذبوع لغة يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم ، ولا عبرة في هذا الأمر بما في اللغة نفسها من سهولة أو عسر في التحصيل ، والممول على القوة والسلطان ، لا على أن اللغة قريبة النال أو بعيدة ، ويسيرة الطلب أو عميقة الناص ، وقد استطاعت اللغة الانجليزية أن تنتشر في الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها ، وأن ترحزح الفرنسية وتخطها عن عرشها ، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً وغرباً ، وليست الانجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية ، ولكن قوة أهلها أكبر ، ونشاطهم أعظم ؛ وهذه « الاسبرانتو » التي اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها ؟ يعرفها آحاد راقهم الفكرة ، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين ، لأنه ليس وراءها ولا قداسها دولة لها سطوة ، وفي الهند لغات عدة لا رجاء لاحتدائها حتى في أن تصبح لغة الهند كلها مادامت إنجلترا تحكمها ، وفي مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً ، هي الجالية اليونانية ، ولكنه يندر أن يعنى مصرى بتعلم لغتها ، على حين تتعلم الانجليزية في مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية

ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد ، فحسبنا هذا القدر ، فالذين يقولون إن المستر اوجدن قد تخير من اللغة الانجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها ، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور في اللغة العربية ، وإنه يعين على نشر اللغة ويفضى إلى ذبوعها ، ويتيح لها أن تصبح « عالية » — أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب ، ويفكرون على هذا النحو ، يفلطون ويقلبون المسألة ، ذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست اللغة

عوجا ، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة — في مرد أمرها — إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ . ولو كان الأمر رهنًا باللفظ وحده لكان الخطب ، وما على الإنسان حينئذ إلا أن يفتح معجبا — إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التي يستعملها الكتاب ، قليل جداً إذا قيس إلى ما في اللغة ، وهو لا يزيد على بضع مئات ، ومن هذه الثبات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور ، وبها يؤدي ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعاني والخواطر والاحساسات ، كما يستطيع المصور — بيضة ألوان — أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها ، فلامعني إذن لهذه الضجة التي يثيرها بعض إخواننا الكتاب حول اللغة ووجوب الاختصار على المؤلف من ألفاظها ، وهجر المهجور منها ، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه ، والكاتب الذي يؤثر الاغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ ، يجني على نفسه بذلك ، وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم

وبعد ، فإنه لا يصح أن يقال إن لغة من اللغات عيبها كثرة الألفاظ ، فإن الألفاظ تنشأ ، ونحيا ، ونموت ، على حسب الحاجة ، والناس لا يشتقونها أو يفتخونها ، أو يضمونها ، أو يستمرونها من اللغات الأخرى ، للترف ، بل للضرورة في وقتها ، وللألفاظ حياتها كاللناس ، وهي — مثلهم — أجيال ، حتى معانيها تتطور على الأيام ، ويجري عليها من المخطوط ما يجري على كل كائن حي ، وإنما الذي يصح أن يقال ، والتي يقبل من قائله ، هو أننا نسيء تعليم لفتنا ، ونجعلها بسوء طريقتنا في تعليمها وبتقصيرنا في حقها ، أعوص مطلباً مما هي في الحقيقة وأشق في التحصيل على أبنائها — فضلاً عن الترباء — من اللغات الأجنبية التي أحسن أهلها القيام على خدمتها وذلوا لطلابها ما فيها من صعوبات لا تجلو منها لغة

وما عدا ذلك خلط لا قيمة له

ابراهيم عبد القادر المازني

أو غموضه ، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك . وقد يتفق لك أن تحدث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ، فتسمع منه كلاماً كالخطيب أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده ، فهذا العامى الأعمى لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللغة ولم يستعمل المهجور والدارس منها ، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والتملمون ، ومع ذلك أعيالك أن تفهم كلامه . فلو أن الألفاظ هي التي يرجع إليها أمر النموض أو البيان ، والصعوبة أو السهولة ، لوجب أن تفهم عنه ، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التي في اللغة ، ولتكن ألفاً لا أكثر ، أو مائة ألف ، أو أقل من ذلك أو أكثر ، فلي يختلف الأمر في الحالين ، والأمر من حيث الأداء في اللغة مثله في التصوير ، ذلك أن الألوان التي يستعملها المصور قليلة العدد جداً ، وهي أداة الصوريين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب ، ولما نظن أن أحداً سيعزم أن تلة الألوان التي يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل ، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها ، ومع ذلك يجيء واحد بالصورة الناطقة بل التي تكاد تصبح من قوة النطق ، ويجيء آخر بغير شيء ، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها ، وإن المصور نفسه هو الذي لم يستطع أن يؤدي بها ما أراد أن يبرزه أو يثبت أو يدل عليه أو يرضى له ، وكذلك في الكتابة : لا ذنب للألفاظ ، فإنها — وهي مفردة — لا تؤدي شيئاً ، ولا فرق بينها ، ولا فضل لواحدة على واحدة ، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الكاتب نظراً أي بعد أن يؤلف بينها ، كذلك الألوان ليست هي الصورة ، وإنما تصبح صورة بعد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت ، فسيظل هناك كتاب مشرقون وانحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعه ، وآخرون غامضون أو معوصون ، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبينوا ما في نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على الأداء الحسن الواضح ، أو لأن في أسلوب تفكيرهم التواء ، أو لأن في طريقة تناولهم للموضوع